إثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

يكتبه : عبد الوهاب مطاوع

القنبلة الموقوتة

رغم أنى من قرائك الدائمين الحريصين على قراءة هذا الباب بانتظام، إلا أننى لم أتصور يوما ما أن أكتب إليك عن مشكلة خاصة بى أطلب منك فيها الرأى والمشورة، والسبب فى ذلك هو أننى كنت دوما أعتبر صاحب المشكلة أدرى بحلها من غيره، وأنه لا يستشعر النار إلا من يقبض على جمرها، لكنى وجدت نفسى فى النهاية راغبا فى الحديث معك عن مشكلتى، لعلى أستشعر بعض الراحة فى حديثى معك عنها، وأستفيد برأيك وخبرتك فيها.

فأنا يا سيدى شاب اقترب من الأربعين، متزوج ولى طفلان أكبرهما فى الثامنة وأصغرهما فى الخامسة من عمره، وقد بدأت مشكلتى منذ تسع سنوات حين قررت كأى شاب فى مثل عمرى أن أتزوج وكنت أتمتع وقتها بالصفات التى تتمناها أية إنسانة فى شريك حياتها، فأخلاقى والحمد لله طيبة بشهادة الجميع، وأنا حريص على أداء الفروض الدينية، ولا أدخن، وأحظى باحترام كل من حولى، وأعمل بوظيفة مرموقة، فضلا عن قوام رياضى وحالة مالية ميسورة، وطبع هادئ، وميل لقلة الكلام.

ولم تكن لى - قبل إقدامى على الزواج - تجارب مع الجنس الآخر، ليس عن عجز عن ذلك، وإنما عن إيمان بأن كل أعمالنا فى الدنيا من قبيل الديون التى تردها علينا الحياة فى أعراضنا وبناتنا إذا نحن هتكنا أعراض الآخرين.

وهكذا فقد قررت الزواج وبعد فترة بحث وقع اختيارى على فتاة جارة لنا كنت أراها فى الذهاب وفى الإياب، وفاتحت أهلى برغبتى فى الزواج منها وأقنعتهم وأقنعت نفسى بالموافقة عليها، تقدمت لخطبتها، وخلال فترة الخطبة لم أستشعر فى نفسى أى ميل تجاه خطيبتى أو للارتباط بها، وعلى الرغم من ذلك فقد واصلت المشوار معها مقنعا نفسى بأنه ليس بالحب وحده تعمر البيوت، وأن الحب الحقيقى قد يولد بعد الزواج وتشابك الخيوط بين الزوجين، وبعد أقل من عام تم عقد القران والزفاف، وجاءت زوجتى إلى مسكنى لنبدأ معا الرحلة المقدسة.

وبمرور الأيام بدأت عيوب زوجتى تتكشف أمامى تدريجيا، ولست أتحدث هنا فقط عن عيوبها كربة بيت غير ماهرة، فأنا والحمد لله أرضى بالحد الأدنى المقبول من المأكل والملبس والمستوى العام للنظافة، لكنى أتحدث عما هو أهم من ذلك وهو سوء الطباع، فزوجتى تثور وتنفعل لأتفه الأسباب، ولست أبالغ حين أقول لك إن الأمور الحياتية اليومية العادية التى يمر بها البشر مرور الكرام قد تكون سببا لانفعال زوجتى الشديد وغضبها المدمر، وهى إذا انفعلت أو غضبت فإنها تكون كالبركان الذى يقذف بالحمم فى كل الجهات متعدية فى ذلك كل الخطوط الحمراء التى لا يجوز تخطيها بين الزوجين حتى ولو وصل الأمر للفراق بينهما.

وهى فى ثوراتها وغضباتها لا تعرف عهودا ولا مواثيق على خلاف الحروب المدمرة بين الدول التى تم وضع لوائح ومواثيق لها تنظمها وتضع لها بعض الخطوط الحمراء التى لا تتجاوزها كضرب المدنيين الأبرياء مثلا، فكيف لا يكون للمنازعات الزوجية خطوط حمراء تنظم المسموح والمرفوض فيها والجميع يعيشون تحت سقف واحد؟

ولست أدعى أننى كنت أقف كل مرة موقف المتفرج حين تتعدى زوجتى الخطوط الحمراء فى انفجاراتها، فلقد كنت أحاول دائما وأنا المعروف بطول البال امتصاص غضبها لكيلا تتجاوز الحدود، وأبذل فى ذلك جهدا وصبرا، وأنجح فى مرات قليلة، وأفشل فى مرات كثيرة، فإذا فشلت وتمادت زوجتى فى تخطيها للحدود أفقد ما تبقى لى من صبر وأتعامل معها بأسلوبها ويعلو عليها صوتى وأفقد السيطرة تماما على نفسى، وأنا الذى لم يفقد أبدا سيطرته على نفسه قبل الزواج مرة واحدة، وعند ذلك فقط تسكت زوجتى، وبدلا من الندم على الخطأ فإنها تمتنع تماما عن القيام بواجباتها المنزلية ابتداء من شئون المطبخ إلى شئون رعاية الطفلين، وتلزم فراشها فلا تغادره إلا لدخول الحمام أو تناول الوجبات وترجع إليه من جديد.

وخلال ذلك أقوم أنا بكل أعمال البيت وشئون الطفلين، بالإضافة إلى عملى، ومع مراعاة أننا نعيش فى غربة عن وطننا لا نجد فيها من يساعدنا من الأهل فى بعض أمورنا، وبعد كل ذلك فلابد لى أيضا أن أقوم بالاعتذار لها، وهو اعتذار لا يقبل من المرة الأولى كما يتوهم ذوو النيات الطيبة، وإنما لابد من تكراره والإلحاح عليه لمدة ثلاثة أيام متتالية على الأقل حتى ترجع لطبيعتها وتغادر فراشها.

ثم أخيرا ترضى وتقبل الاعتذار وترجع لممارسة نشاطها الطبيعى ونتمتع بفترة هدوء قصيرة، ثم لا يلبث بركان غضبها وانفعالها أن ينفجر لأى سبب تافه آخر وتتكرر نفس القصة بنفس تفاصيلها من جديد.

لقد فشلت يا سيدى فى إصلاح طباع زوجتى، مع أنى سلكت فى سبيل ذلك كل مسلك وكل وسيلة، وترسبت فى نفوسنا مرارات كثيرة، واستنفدت معها كل سبل الإصلاح التى أمرنا بها ديننا، ويحز فى نفسى أن زوجتى هى الشخص الوحيد فى الحياة الذى تدنت علاقتى به إلى مستوى تبادل الشتائم والصفعات واللكمات أمام الأهل والجيران.

وقد بدأت أشعر بأننى لا أعيش مع زوجة، إنما مع قنبلة موقوتة قد تنفجر فى أية لحظة لأتفه الأسباب، وبالرغم من أننى راض بالحياة معها من أجل طفلى، وقادر فى بعض الأحيان على نزع فتيلها، لكن سؤالى هو : وماذا عن الحالات التى أعجز فيها عن نزع هذا الفتيل فى الوقت المناسب وهى أيضا كثيرة؟ وإلى متى سوف أستطيع تحمل عواقب هذه الانفجارات المتتالية فى حياتى الخاصة؟

لقد فكرت كثيرا فى طلاقها والخلاص منها، لكن هناك سببين يدفعاننى للتردد فى ذلك، الأول: هو خوفى على طفلى ليس فقط من أثر الانفصال عليهما بل وأيضا من حياتهما معها بعيدا عن إشرافى ورقابتى، وهى قد تؤذيهما بدنيا خلال ثوراتها الانفعالية كما حدث من قبل.

أما السبب الثانى الذى يؤجل طلاقها ولا أقول يمنعه، فهو علاقتى الطيبة بأهلها، الذين يعتبروننى واحدا منهم، وأعتبرهم أنا أيضا بمثابة أهلى، وأغلب الظن أنهم يعلمون سوء طباعها لكنهم للأسف عاجزون عن تغييرها.

إننى مازلت متمسكا بأن أعيش إلى جوار طفلىّ، على الرغم من كل ما أعانيه من زوجتى، فلقد أثبتت التجربة أن حبى لهما أكبر من أى شىء آخر فى الوجود، ولقد وضعتنى المقادير بين خيارين أحلاهما أمر من العلقم: إما أن أظل أحيا كفريسة لصياد لا يرحم متقلب المزاج رغم اقتناعى بأن حياتى العائلية أبعد ما تكون عن الاستقرار، ورغم كراهيتى لعشرتى مع زوجتى لا سامحها الله، وإما أن أجد نفسى مضطرا للافتراق عن طفلى وتركهما تحت رحمة أم بمثل طباع زوجتى هذه، فكلا الأمرين لا أطيقه ولا أحتمله.

إننى لم أعد أحمل لزوجتى حبا ولا مودة، وحتى فى لحظات الصفاء القصيرة بيننا أجد نفسى عاجزا عن نسيان ما فعله كل منا بالآخر، والعجيب أنك إذا رأيت زوجتى فى فترات الهدوء المتقطعة، لا تظن أبدا أن هذه القطة الوديعة هى نفسها تلك النمرة الشرسة المفترسة التى لا تعرف فى لحظات ثورتها وانفعالها فرقا بين الحق والباطل.

وإنى أريد أن أسألك: هل انقلبت الأوضاع فأصبحت الزوجة هى الآمرة الناهية المسيطرة وليس على الزوج سوى الخنوع والاستكانة؟ وهل أصبح الرجال فى حاجة إلى قاسم أمين آخر يطالب لهم المساواة بالنساء فى الحقوق والواجبات؟

وأى زمن هذا الذى يجعل المرأة تقبل يد أخيها وتكشر عن أنيابها لزوجها الذى يستميت فى محاولاته لإرضائها وإسعادها؟

وهل يثاب الرجل عن صبره على زوجة نكدية وتحمله لها حماية لأطفاله من الضياع والتشرد؟

لقد قرأت لك فى أحد ردودك أن هناك نبيا من أنبياء الله قد ابتلاه ربه بزوجة نغصت عليه حياته، وأن الله سبحانه وتعالى قد أخبره بأن ذلك فيه خير له، لأنه يكفر له به عن ذنوبه، فأرجو منك أن تعيد ذكر هذا الموضوع بشىء من التفصيل، عسى أن يكون دافعا لى على المزيد من الصبر والتحمل إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا.

لقد منّ الله علىّ من فضله بسائر النعم التى يتمناها أى إنسان، لكنه لحكمة يعلمها سبحانه قد حرمنى من الزواج من إنسانة عادية، وقد كان كل ما أتمناه هو أن تكون زوجتى كالغالبية العظمى من البشر.

- أما سؤالى الأخير لك فهو: هل تنصحنى بالاستمرار فى التحمل بعد كل ما رويت لك؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هناك بالفعل علاقات زوجية لا يمكن توصيفها إلا بأنها حالات طلاق مؤجل لحين اطمئنان أحد طرفى العلاقة إلى أن أبناءه سوف يتحملون بأقل الأضرار النفسية والاجتماعية الممكنة تبعات الانفصال بين الأبوين، أو إلى حين استجماع أحد الطرفين لقدرته على خوض تجربة الانفصال وتحمل آثارها، والتصدى لعواقبها الاجتماعية والمادية والنفسية.

ولا عجب فى ذلك، لأن مثل هذه العلاقات إنما تحمل فى طياتها عوامل الفشل والانهيار كما ينخر السوس فى أساس البناء، ويهدد بانهياره فى أية لحظة، فإذا استمرت مثل هذه العلاقات وطال أمدها، كان استمرارها ملاحة صعبة ضد التيار لا يهون صعوبتها على الطرفين أو أحدهما إلا ما يحتسبه عند [illegible] تضحية بسعادته الشخصية إيثارا لمصلحة الأبناء أو ترفقا بشريك حياة لم يعن صاحبه على احتمال الحياة معه.. أو إشفاقا على هذا الشريك من الضياع الذى يدفع هو نفسه علاقته بصاحبه إلى حافته المدمرة.

غير أن عامل التضحية من أجل سعادة الأبناء وحده هو الذى يتحمل الجانب الأعظم من مسئولية استمرار مثل هذه العلاقة الزوجية المحكوم عليها بالفشل من قبل البداية، لسوء طباع أحد طرفيها.. أو لاستحالة الوفاق بين الزوجين.

وللأسف الشديد فإن الطرف المزعج فى مثل هذه العلاقة الزوجية المريضة، لا يدرك فى معظم الأحيان الأسباب الحقيقية لاستمرار زواجه.. وإذا أدركها لم يستشعر الفشل الشخصى فى أن يكون المبرر الوحيد لاستمرار حياته الزوجية مع شريك حياته ليس الحرص عليه أو الرغبة فيه، وإنما الحرص على الأبناء وتحمل العناء والتعاسة من أجلهم.

وعلى حين يجاهد بعض الأزواج والزوجات جهاد الأبطال لكى ينالوا رضا شركاء الحياة، وقد لا يظفرون منه رغم العناء إلا بأقل القليل.. وقد تنهار حياتهم الزوجية ويسجل عليهم الفشل فى الزواج بالرغم من كفاحهم البطولى لإنجاحه بكل السبل الممكنة، فمن مفارقات الحياة أن تظهر على الناحية الأخرى بعض الزوجات أو بعض الأزواج ممن لم يبذلوا نقطة عرق واحدة لحماية زواجهم من الانهيار بمظهر «الناجحين فى حياتهم الزوجية» بدليل استمرارها الشكلى فى مواجهة المجتمع، ولو أنصفت الحياة لقضت لمن بذلوا كل ما فى الوسع للحفاظ على حياتهم الزوجية بالنجاح والاستمرار، ولقضت على من لم يبذلوا أبسط الجهد لحماية زواجهم بالفشل والخيبة وإدانة المجتمع.

«لكن هكذا تمضى بعض أمور الحياة، يا صديقى» كما يقول لنا أمير القصة القصيرة أنطون تشيكوف.

وهكذا قد يجد شاب مثلك يرى: أنه لا يقصر فى السعى لاستمرار زواجه وإنجاحه طلبا لسعادة الأبناء - نفسه، مضطرا للتسليم الباطنى بأن علاقته بزوجته محكوم عليها بالفشل طال المدى أو قصر.

والحق أننى فى بعض حالات استحالة العشرة الزوجية التى استشعر فيها اليأس النهائى من الإصلاح والحياة بسلام بين الطرفين نتيجة للطبع النارى لدى أحدهما أو لحمقه وجهالته وسوء تقديره لعواقب الأمور، أو لاستمرائه استغلال صبر الطرف الآخر عليه وتسامحه الذى قد يظهره فى بعض الأحيان بمظهر الضعف معه، أقول إننى فى بعض هذه الحالات فإننى أنصح الطرف المجنى عليه بأن يسلم بينه وبين نفسه بأن علاقته بشريك حياته هى بالفعل علاقة مقضى عليها بالفشل والانهيار، ذات يوم قريب أو بعيد، لكنه يجاهد نفسه لإطالة المدى الزمنى الذى يستمتع فيه صغاره بالحياة الطبيعية تحت مظلة أبويهما معا، بكل ما يملك من قدرة على الصبر والاحتمال، مؤمنا بأن كل عام جديد يضيفه إلى هذه الحياة الطبيعية لأطفاله، سوف يقلل قدرا محسوبا من الآثار النفسية والاجتماعية السلبية للانفصال عليهم، ويضيف إليهم أيضا قدرا آخر من المناعة ضد بعض هذه الآثار.. ويزيد من قدرتهم على تحمل الانفصال بغير خسائر كبيرة.

ثم من يدرى بعد ذلك بما يمكن أن تحمله الأيام لطرفى مثل هذه العلاقة الشائكة.. فقد يتخلص الطرف المزعج فيها من بعض طباعه السيئة، وقد يتوافق الطرف الصبور مع بعض هذه الطباع.. وتتحقق صيغة ملائمة تسمح باستمرار الحياة إلى غايتها الطبيعية.

فإن لم يتحقق هذا أو ذاك فلقد كسب الأبناء فى كل الأحوال مهلة زمنية ثمينة تمتعوا خلالها بالحياة الطبيعية، وازدادوا فهما للحياة وإدراكا لبعض حقائقها، وتأجلت خلالها إلى أقصى حد ممكن تعاستهم التى لا مفر منها بانفصال أبويهم حين يقع هذا الانفصال، فضلا عن عامل آخر لا يقل أهمية.. وهو أن تسليم الطرف المجنى عليه فى العلاقة باطنيا بأن علاقته بشريك حياته مقضى عليها بالانهيار ذات يوم قريب أو بعيد، وأنه يؤدى باحتماله المؤقت لها واجبا أخلاقيا وتربويا تجاه أبنائه، إنما يدفعه غالبا إلى التخفف من بعض معاناته مع هذا الطرف المزعج.

ويدفعه أحيانا إلى التجاوز عن بعض أسباب الملاحاة والشقاق معه، ادخارا للجهد النفسى من أن يتبدد فى علاقة يسلم هو بينه وبين نفسه بأنها مؤقتة وليست أبدية! تماما كما قد يتحمل راكب القطار بعض ما لا يرضيه من رفاق السفر، مهونا الأمر على نفسه بأنها ليست سوى ساعات قليلة ثم يصل القطار إلى غايته.. وينصرف كل إنسان إلى حال سبيله، وبالتالى فليس هناك ما يدعو لأن ينغص على نفسه ساعات السفر الباقية بالشقاق والخلاف مع من سوف يفترق به وبهم الطريق بعد قليل.

والحق إننا نحتاج لأن نتعامل مع بعض أوجه الحياة بنفسية المسافر هذه التى تعين الإنسان على التجاوز عن بعض السفاسف والمضايقات الصغيرة، وتساعده على تحقيق الحد الأدنى من السلام العام مع الآخرين ما داموا لا يشاركونه حياته كل الوقت، وأحسب أنك يا صديقى فى حاجة إلى أن تتعامل مع زوجتك ذات الطبع النارى المتفجر بمثل هذه النفسية لكى تهون على نفسك بعض عناء الحياة معها، وتتفادى أسباب الزوابع والانفجارات البركانية المتوالية إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا فى شأن علاقتك بها، فإما أن تكتسب هى الحكمة وروح العدل والإنصاف قبل فوات الأوان، وإما أن تفرق الحياة بينكما ويغنى الله كلا من سعته.

فمن أشد عيوب الإنسان - كما يقول ابن المقفع - خفاء عيوبه عليه، ذلك أن من خفيت عليه عيوبه خفيت عليه محاسن غيره، ومن خفى عليه عيبه ومحاسن غيره لن يقلع عن عيبه الذى لم يعرفه أبدا ولن ينال محاسن غيره التى لا يبصرها.

وآفة بعض أطراف العلاقات الزوجية من هذا النوع، أنهم لا يعرفون عيوبهم أبدا ولا يصدقونها لو ووجهوا بها ويرون أنفسهم - جهلا وعمى بصيرة - أمثلة للكمال البشرى لم يحسن شركاء الحياة تقديرها، ولا يتطلعون لاكتساب محاسن غيرهم لأنهم لا يبصرونها، وهكذا فقد يظلون سادرين فى غيهم إلى أن تهوى المطارق فوق رءوسهم ويفاجأوا بتخلى شركاء الحياة عن عشرتهم النكراء بلا ندم.

فعسى ألا تكون زوجتك من هذا النوع من البشر، وعسى أن تراجع نفسها وعلاقتها بك وتصرفاتها معك، وتعمل على التحكم فى انفلاتاتها العصبية وانفجاراتها الزمنية.. قبل أن تفاجأ بما لم تتخيله ذات يوم من جانبك، أما نبى الله الذى صبر على زوجته فقد روى عنه الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه «النكاح» فقال: وفى أخبار الأنبياء أن قوما دخلوا على يونس النبى عليه السلام فأضافهم فكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت، فتعجبوا من ذلك فقال: لا تعجبوا فإنى سألت الله تعالى وقلت: ما أنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا، فقال إن عقوبتك بنت فلان تتزوج بها فتزوجت بها وأنا صابر على ما ترون منها، ومن فوائد الزواج أيضا عند الإمام الغزالى: مجاهدة النفس ورياضتها.. وكسر الغضب وتحسين الخلق بالصبر على «الأهل» أى الزوجة!

وأما ما تسأل عنه من أجر الصبر على مثل هذا الأذى، فلقد روى الإمام الغزالى أيضا فى الكتاب نفسه حديثا شريفا للرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون».

وبلاء أيوب عليه السلام معروف ولا يحتاج إلى تفصيل.. وأما آسية فهى امرأة فرعون موسى وهارون الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم والتى حمت موسى رضيعا من القتل.

وبعد.. فاحتمل من بلائك ما تستطيع أن تحتمله.. وأن تطيل به فترة الاستقرار فى حياة صغيريك إلى أطول فترة ممكنة.. وبما تسمح لك به طبيعتك وظروفك. فإن عجزت عن مواصلة الاستقرار والاحتمال بعد ذلك فلا لوم عليك ولا تثريب إذا أنت توقفت فى منتصف الطريق وأعلنت عجزك عن مواصلة حياة لا تعتمد فى استمرارها وتواصلها إلا على قدرتك أنت وحدك على مواصلة الصبر والاحتمال، وبغير أية بادرة أمل قريب فى تحسن بعض طباع زوجتك أو تحملها لمسئوليتها المكافئة لمسئوليتك عن إسعاد الأبناء وحماية الزواج من الانهيار.